بين أكثر زوج، في حين وجدنا أن نسبة من تزوجوابأكثر من زوجة واحدة في أحياء الصفيح لا يتجاوزون 01.08%من مجموع عمال العينة[16].

الأسرة النووية:

يلاحظ تحول الأسر العمالية الحضرية بصورة تدريجية من مرحلة الأسرة الممتدة إلى مرحلة الأسرة النووية بدليل أن البحوث الميدانية، في مدينة القنيطرة قد أثبتت انه في حين شكلت الأسر العمالية الممتدة 41.73% من مجموع اسر العينة في أحياء الصفيحشكلت هذه الأسر 13.20 % من جملة أسر العينة العمالية في حي ديور المخزن وهذا مما يؤكد أكثرأسر في الأوساط العمالية الحضرية أصبحت الآن أسر نووية تسكن في منازل مستقلة عن منازل أهلها[17].

قصبة الجزائر رمز و معلم الهوية الحضرية

وداش ضاوية /جامعة الجزائر

قسم علم الاجتماع جامعة الجزائر (02)

[16]– مرجع سابق، ص 597.

[17]– نفس المرجع، ص 598.

Résumé :

L'identité dispose de plusieurs concepts et définitions, qui se différent et convergent selon la diversité des sciences, de la philosophie à la psychologie jusqu'à la sociologie ,et chacune d'elles l'évoque à sa manière ,c'est pour cela, nous n'allons pas nous étaler dans ses détailles conceptuels, plutôt nous allons évoquer son rôle fonctionnel en milieu urbain, et parce que la question sociale est devenue une question urbaine selon « Robert CASTEL ,et considérant que la plupart des phénomènes sociales et les crises n'apparaissent que dans les grandes agglomérations urbaines et la plupart de ses problèmes et fléaux sociaux sont dus aux difficultés d'intégration et d'exclusion sociale donc à la crise d'identité ,et comme l'identité dans son état normal possède des mécanismes fiables pour faire face à de telles situations à travers le développement de l'esprit d'appartenance aux gens à leur espace ,en unifiant leurs différentes références et identités par une seule identité, qui leur permettra de vivre en harmonie avec l'espace, et leur apprendre aussi le mode d'emploi de ville et la façon de se comporter en vrai citadins .

A partir de cela j'ai essayé de mettre la lumière sur la réalité de l'identité urbaine dans la casbah d'Alger et le rôle de minorité des autochtones dans la sauvegarde des quelques repaires et symboles de identité urbaine qui distingue la casbah et ses habitants.

الملخص:

إن للهوية عدة مفاهيم وتعريفات تختلف وتتلاقى حسب تعدد ميادين العلوم التي تهتم بدراستها، فمن الفلسفة الى علم النفس وصولا الى علم الاجتماع ،كل أدلى بدلوه أثناء التطرق إليها ، لذا فنحن لن نسهب في ذكر كل مفاهيمها بل سنهتم بالجانب الوظيفي لها في الوسط الحضري ، ولأن المسألة الاجتماعية تحولت إلى مسألة حضرية على حد تعبير Robert CASTEL ،وباعتبار أن شتى الظواهر والأزمات تظهر بالمدن،وأغلب هاته المشاكل والأزمات ناجمة عن مشاكل الاندماج في الوسط الحضري وكذا الشعور بالإقصاء والتهميش أي باختصار أزمات هوياتية ,وبامتلاك الهوية لمضامين وميكانيزمات خفية ذات فعالية في معالجة مثل هذه الأوضاع من خلال خلق روح الانتماء لدى السكان ودمجهم بشتى مرجعياتهم وثقافاتهم,وذلك من خلال تذويب كل هاته المرجعيات وصياغتها في هوية مجالية واحدة ،هوية حضرية تمكنهم من العيش بتناغم مع محيطهم وكذا مع من حولهم بتدريبهم على كيفية استعمال واستهلاك مجالها بالشكل اللائق لها ولهم ، لذا أردت من خلال مداخلتي هاته أن أسلط الضوء على واقع الهوية الحضرية في القصبة،وكذا معرفة دور الفئة القليلة الباقية للسكان الاصليين للقصبة في الحفاظ على بعض من رموز ومعالم الهوية الحضرية المميزة لها؟

الكلمات المفتاحية : الهوية الحضرية، القصبة، ، الاندماج الحضري,الممارسات المدنيّة.

نص المداخلة

مقدمة

الحديث عن أي مدينة هو ليس مجرد حديث عن مجال حضري يعج بالمنشآت والمباني العصرية،تميزه الانشطة الاقتصادية والإدارية،وتزدحم به الطرقات فحسب، بل هو حديث عن وعاء اجتماعي حضري يحتوي على ثقافة وهوية أناس عاشوا بها أثروا وتأثروا بها، أحبوا المجال وأعطوه هوية ،فاحتضنهم وأرشدهم الى الطريقة المثلى للاستمتاع بكل ركن من أركانه، وهذا حال مدينة الجزائر وسكانها, اللذيّن قيل فيهما الكثير ، فكانوا كما وصفهم "**حمدان بن خوجة**" ...شجعان واجتماعيون وأوفياء للعهود وكرماء وبسطاء في نمط حياتهم ونظيفون في منازلهم ،وصناعيون وتجار ...خيال الجزائريين خصب وأفكارهم منظمة ،...لايصعب عليهم أي عمل يدوي كان أم فكري أو له علاقة بالعبقرية..."(1) وعلى ضوء ماسبق قوله سيكون طرحنا هذا مبني على أساس الجانب المعنوي للمدينة أي الى التطرق لوظيفتها الاجتماعية والرمزية المتمثلة في بناء وتكوين الهوية الحضرية للفرد سواء المولود بها أو الوافد اليها ، وعليه لن نجد أحسن من قصبة الجزائر كإسقاط لكل هذا باعتبارها النواة الحضرية الأولى التي لعبت هذا الدور بامتياز فقد كانت تعتبر آلية حضرية ومركز للإشعاع الثقافي والحضري لما حوته من فنون وصنائع قمة في الرقي المديني ،وكذا لما حوته من علاقات وروابط اجتماعية تميزت بالخصوصية والانتعاش، ولما خلقته من ممارسات حضرية ومدينية جعلاها تحقق التناغم الاجتماعي والمجالي،و خولها لأن تكون مرجعا أساسيا لتعلم طريقة الحياة في المدينة بحيث ارتكزت على مبادئ سامية لا مجال للإستغناء عنها كحسن

الجوار وتكريس مبادئ الاحترام والوقار للجار،وكذا إعطاء الحي لقدسية كبيرة بحيث كان يمثل مجال حميمي شبه عائلي وهو بمثابة الملجأ الآمن للاحتماء به ..."(2)هذا على حد وصف **Jaque BERQUE»** «أين كان يكفل حق كل ساكن ويحدد له واجباته في إطار راق يعكس أخلاق وتعاليم المجتمعات الاسلامية ، ولكن بمرور الوقت وتوالي الأزمات التي غيرت الأوضاع داخل القصبة من زلازل الى استعمار إلى نزوح ريفي، والتي أفرغتها من سكانها الأصلين الذين كانوا الملقنين لهاته الثقافة الحضرية وممارساتهم تلك كانت بمثابة الوقود الذي يغذي تلك الهوية الحضرية لأفرادها وكذا الوافدين اليها ، وبتغير التشكيلة السكانية ووفود النازحين اليها من كل حدب وصوب حاملين لثقافات وأساليب حياة مختلفة دخيلة عن القصبة بدأت تلك الممارسات الحضرية والمدينية المميزة للقصبة وسكانها في الاختفاء شيئا فشيئا ، وهذا ما حثني على أن أسلط الضوء على واقع الهوية الحضرية بالقصبة في ظل هاته التغيرات و أتساءل عن دور الفئة القليلة الباقية من السكان الاصليين في الحفاظ على البعض المتبقي من معالم ورموز هويتها الحضرية؟

<u>أولا</u> : الهوية

أ–لغة تعني الضمير المنفصل "هو"الذي يدل على ذات الشيء أو الشخص المستقلة عن ذوات الاشخاص الآخرين (3).

وفي قاموس المنجد :هي حقيقة الشيء او الشخص المطلقة التي تشتمل على صفاته اللجوهرية .(4)

حسب قاموس لاروس :هي مجموع الظروف التي تجعل الشخص شخصا مميزا ومحددا(5) .

ب– الهوية في علم الاجتماع :

عبد الله الشامي رشاد:هي الشفرة « code »التي يمكن للفرد عن طريقها أن يعرف نفسه،في علاقته بالجماعة الاجتماعية والثقافية التي ينتمي اليها،وعن طريقها يتعرف عليه باعتباره منتميا الى تلك الجماعة.(6)

أحمد عابد الجابري:هي الحد المكتسب من المعارف والتصورات والممارسات الفكرية لدى الانسان في محيطه الاجتماعي ،والتي تلقاها لمصلحته ولمصلحة هذا المحيط.(7)

أحمد مجدي حجازي: هي صفات وأحاسيس ونمط حياة،هي في كل شيء،في الملبس والمأكل والموسيقى والفن والثقافة والحرية والمقاومة والصمود.(8)

Manuel CASTELLS:هي منبع الفهم والتجربة،وهي العلاقة الانفعالية الشعورية بين الساكن ومجاله في لحظات وجودهم.(9)

وفي تعريف آخر له :هي المشروع النقيض لهيمنة الشبكات ،وهي محاولة لمقاومة النظام الرأسمالي العالمي من خلال زعزعة مؤسساته وأشكاله التنظيمية واستعمال أنساق رمزية وثقافية لا يستطيع هذا النظام اسيعابها أو فهمها.(10)

Denise CUCHE: هي فعل اجتماعي ناشيء عن تصورات معينة وليست وهما يتعلق بمجرد ذاتية الفاعلين الاجتماعيين ،فتشكلها من جهة يتم داخل المجالات الاجتماعية التي تحدد موقع الفاعلين الاجتماعيين ،وتوجه تصوراتهم وخياراتهم ، ومن جهة أخرى تكسب حامليها فاعلية اجتماعية تترك آثارا حقيقة .(11)

Jean Paul MAUGNIER:الهوية تبنى من الداخل من علاقة حقيقية أو خيالية،تشمل الفرد أو الجماعة من الناس أو المعنى المراد لها ،يتعلق الأمر إذن بأي شيء ينتج ذاته ،بطريقة تجعله مختلفا عن الآخرين.(12)

Kaj NOSCHIS:هي تلك العلاقة التي تنشأ بين الفرد ومجاله(حييه)أو تلك العلاقة الموجودة بين الساكن ومسكنه.(13)

LUSSAULT Michel:الهوية المجالية هي تمثلات متبناة انسانيا وطبيعيا.(14)

<u>ثانيا :أهم المنظرين للهوية الحضرية</u>

يعود استعمال تأثير المجال الحضري أو المدينة كآلية مهمة في فهم سلوك وطبائع الافراد ومن ثم فهم شخصياتهم وتحديد هوياتهم الى أمد بعيد ، ، فقد ذكر **ابن خلدون** في مقدمته :"أن طبائع العمران تتحدث عن أحوال الماضيين من الأمم وعاداتهم وتقاليدهم " لكن دون ذكر مصطلح الهوية الحضرية المعروف حاليا في علم الاجتماع .

أ- **مدرسة شيكاغو** :والتي كان لها دور مهم في هذا الطرح وعلى رأسهم "**بارك**"حيث أبرزوا خصوصية الثقافة الحضرية وحللوا أسلوب الحياة في المدينة وكذا كيفية تغير العلاقات الاجتماعية بها ومن ثم سيرورة استبدال الهويات بها ،فالبنسبة ل"**زيمل**" المدينة مجال للغرباء ولكي نعيش بها يجب أن تكون علاقاتنا سطحية وغير شخصية مع الآخرين ،أين تعدد الأدوار يكون ضروريا ،أما "**بارك**" فقد تكلم عن كيفية تغيير الفرد لمرجعيته داخل المدينة ،فبعد أن تكون مرجعية عمودية مرتبطة بالانتماء لعرق أو سلالة ،تصبح مرجعيته أفقية مجالية مرتبطة بالانتماء للمدينة أو للحي الذي يسكنه.

أما "**ماكنزي** " فقد اعتبر المدينة عنصر مذوب للهويات المبنية على التعامل العرفي ،أين تعمل على استبدالها بأخرى مجالية قائمة على أساس التعاملات الرسمية.(15)

وكنتيجة لما توصل إليه هؤلاء الباحثين فإن المدينة يفترض أن تمتلك ميكانيزمات أو آليات تعمل على استبدال الهوية الفردية الى هوية مستوحاة من الحياة الاجتماعية ،لكن المشاكل الاقتصادية والاجتماعية قد تجعل الأفراد يحافظون على مرجعياتهم القديمة ليستطيعوا العيش وسط مجال يرفضهم أو لصعوبة اندماجهم به ،فيلجأون للانغلاق على أنفسهم من خلال تمسكهم بمرجعيات متعددة،قد تكون ريفية لا تتلائم ونمط الحياة في المدينة ، فتبقى هوياتهم مبنية على اساس الانتماء لمنطقة أو أصول جغرافية ما، أو الى القرابة الدموية وغيرها ...وهذا ليستطيعوا المقاومة

والعيش،وهذا ما لاحظناه في زيارتنا الميدانية بالقصبة،ففي تلك البنايات المهدمة والمساحات الشاغرة وجدنا هنالك عائلات نازحة لا تعرف عن ثقافة سكانها و حييها، أورمزيته شيئا ولا تربطها أدنى علاقة بجيرانها ،بل تعيش في عائلات صغيرة تربطهم إما علاقات القرابة أوالانتماء لأصل جغرافي الواحد، وهذا ما يتنافى و مبادىء الهوية في المدينة ،لأن هذا ما سينتج لنا قرى داخل المدينة أوما نطلق عليه بظاهرة تريف المدن،والذي يعتبر من أهم عراقيل الاندماج الحضري,والذي من شأنه أن يضعف آلية المدينة في بناء وتكوين الهوية الحضرية . (16)

ب-**موريس هالبواكس :**

تعرض إلى المحاولة التحليلية لمدرسة شيكاغو ،والى فعالية المفاهيم التي أتى بها "**بارك**" و"**وورث**" كما أطلق الباحث عل مدينة شيكاغو تسمية "مدينة المهاجرين" باعتبارها عرفت نموا حضريا سريعا ونزوحا هائلا ،وقد درس بها مفهوم الاندماج الاجتماعي وسيرورة التنظيم الاجتماعي ،وكتب في المورفولوجيا الاجتماعية وكيفية تأثير الأشكال المجالية وتجمع الناس على الأنظمة الاجتماعية والرباط الاجتماعي ،كما تحدث عن الذاكرة الجماعية والذي يعد مرجعا أساسيا لمعرفة كيفية انتقال التراث من جيل لآخر،إذ يذكر في هذا الطرح أن ذاكرتنا هي اعادة بناء الماضي وتقدم لنا انطلاقا من آثارا بقيت فينا أو في مجتمعنا ،فالذاكرة الاجتماعية هي القدرة على أن نضع أنفسنا في وجهة نظر الغير بصفة عامة ولا نستعمل محتوى الذاكرة الجماعية بل الميكانيزمات الأكثر شمولا الخاصة بكل مجموعات مجتمعنا كالمجال،الزمان،اللغة،الروابط الاجتماعية، والتي ترجع كلها الى ثقافة الاحساس بالمعنى مهما كان، فالذاكرة الجماعية هي صلة اجتماعية في الحاضر ،وقدرة على تذكر ماض وّلى ،هو تحيين لهوية(16)، وإذا أسقطنا هذا الطرح على الذاكرة الاجتماعية لسكان القصبة,،فسنجد أنه نظرا لكل هذه التغيرات التي شهدتها القصبة ، لم تعد هاته الأخيرة قادرة على انتاج ذاكرة جماعية موحدة لكل سكانها كما كانت عليه سابقا، بحيث أصبح لكل فئة من سكانها ذاكرة جمعية تحينها وقت الضرورة ،متمايزة ومختلفة عن بعضها البعض ،فللسكان القدامى مرجعيتهم وذاكرتهم الخاصة حول القصبة مرتبطة بذكريات زمنهم الجميل بكل عاداته وتقاليده الحضرية، أما النازحين الجدد فلا يرون من ذلك شيئا وذاكرتهم الجماعية حول المجال مرتبطة بظروفهم الصعبة وأزماتهم التي جعلتهم يسكنون بها في غرف مهترئة وضيقة، كسكان من الدرجة الثانية.وعليه من المفروض أن توحد القصبة مرجعيات سكانها وتزودهم بذاكرة جماعية مرتبطة بحييهم الذي يسكنوه والتي تمكنهم من العيش فيما بينهم بتناغم اجتماعي ومجالي خال من أي صدامات بين القدامى والجدد ،كتلك القائمة على أساس الانتماء للأصل الجغرافي الواحد،أومدة الاقامة بالحي ،و غيرها من المعايير التي باتت تعرقل عملية اندماجهم الحضري والمديني .

ج- كيفين لينتش وزملاؤه:

يعتبر من أبرز الذين نظروا لإمكانية قراءة العمران عن طريق المجال والهوية ، أين تكلم عن الهوية الحضرية في الولايات المتحدة الامريكية ،وكان ذلك في سنوات الستينات (17) ،كما نجد عديد المساهمات التي نذكر منها ،مساهمة **J. Jacob** والذي حاول إظهار مفهوم المدينة من خلال كل الوظائف الاجتماعية والرمزية وأشكال المجالات العمومية بها .

وكذا **BULOT**الذي اعتبر أن المجال لا يلاحظ ولا يسجل إلا من خلال الثقافة الحضرية ، ومصطلح الهوية الحضرية يعبر عن المعاني وعن الممارسات الاجتماعية والأمكنة ،كما تطرق **Gervais Lambony**للهوية على أنها متعلقة بحقيقة معطاة ،لكن بخطاب يقترح نظاما للأشياء وإعادة كتابة التاريخ ،المجال والثقافة (18).

د-مانويل كاستلز:

تكلم عن نفوذ وسلطة الهوية على كل النواحي الاجتماعية والاقتصادية والثقافية في ظل العولمة ،وطرح دورها في التنمية المجتمعية باعتبارها "بناء لواقع ديناميكي في تشكيل المجتمع وكذا عملية لبناء المعنى على أساس سمة ثقافية مفردة ،أو منظومة من السمات الثقافية التي تعطى بها الأسبقية عن باقي المصادر المنتجة للمعنى..."(19) فالثقافة الحضرية بالنسبة اليه ليست مجموعة مفاهيم ،لكن ايديولوجية اندماج اجتماعي في المجتمع الحضري (20). وعليه من خلال كل هاته الاسهامات تم تناول الهوية الحضرية بمفهومها الواسع في العلوم الاجتماعية وكذا دورها الفاعل للتصدي لأخطار العولمة على حد تعبير "كاستلز".

ثالثا: <u>أنماط الهوية</u>

لقد حدد **مانويل كاستلز** أنماطا ثلاثة للهوية هي (21):

أ-هوية إضفاء الشرعية: والتي تصوغها المؤسسات المسيطرة في المجتمع لتبسط نطاق سيطرتها على الفاعلين الاجتماعيين ولتبرر هاته السيطرة في آن واحد.

ب-هوية المقاومة:هي تلك الهوية التي ينتجها هؤلاء الفاعلين الذين يجدون أنفسهم مستبعدين بحكم منطق السيطرة ،وتكمن هذه المقاومة في تشكيل كوميونات أو مجتمعات محلية كطريقة للتعامل مع مع ظروف القهر والتي لايمكن أن تحتمل إلا بهاته الطريقة.

ج-هوية المشروع:هي تلك التي تنتجها الحركات التي تطمح في تغيير المجتمع ككل وهي أكثر من كونها وسيلة، بل هي تأسيس لشروط تسمح لهم فيما بعد بالبقاء في وضعية معارضة لهؤلاء الفاعلين المهيمنين.

وعليه يظهر لنا جليا من خلال هاته الأنماط ،أن الهوية عند "كاستلز" هي آلية قد تكون ناجعة لضرب أخطار العولمة وهيمنة رجالاتها ،إذ يمكن أن تكون سلاحا متعدد الاستعمال على حسب مستخدميه من الفاعلين فمرة يستغل لإضفاء الشرعية وتبرير سيطرة المؤسسات على الفاعلين من خلال تقوية الشعور بالانتماء للوطن والقومية أو دعوى التحرر والانفتاح وغيرها والتي في بعض الاحيان لا تخدم إلا مصالحهم الشخصية،ومرة تأخذ شكل المقاومة لدى الفاعلين الاجتماعيين

عندما يضيق صبرهم من هذه السيطرة ،فيسعون لتغيير واقعهم بكسر هذه الهيمنة عن طريق التشبث بالأصالة وبهوية واحدة معبرة عنهم في شكل مجتمعات المحلية وجماعات ترفض أي اختراق لها ،ومرة تأخذ شكل المشروع عندما تتبناها تلك الحركات الاجتماعية الرافضة لأشكال هاته الهيمنة ،وهذا من خلال تسطير مخطط يضم كافة الشروط والآليات التي تضمن بقائها دائما في وضعية معارضة ومقاومة للفاعلين المسيطرين.

رابعا: وظائف الهوية

إن للهوية وظائف وأدوار ضمنية ظاهرية وباطنية،اهمها ما حدده لنا(22 **C .CAMILLERI** فيما يلي:

أ–الوظيفة المعنوية :وهي عملية انتاج الذات الفردية والجماعية وتأكيدها وإعادة ترتيب علاقتها بمحيطها من اجل اثبات وجودها وتحقيق الاستقرار .

ب–الوظيفة الادماجية :أين تسعى الهوية في دمج وتكييف الأفراد مع محيطهم وأوضاعهم ووضعياتهم المختلفة.

ج–الوظيفة القيمية:هذا كون الهوية تستنبط قيمها من المعايير العليا للمجتمع والجماعة ،وعندما يحصل الانسجام والمحيط، تشكل آنذاك هوية مرغوب فيها وذات معنى وقيمة للآخرين من أجل كسب الاعتراف بها في الفضاء العام.

نستطيع أن نستطرد ونقول أن من أهم وظائف الهوية في هذا المقام ،هي الوظيفة الادماجية للفرد داخل مجاله ومجتمعه خصوصا في المجال الحضري باحتوائه على شبكة العلاقات المتباينة والقائمة على اساس المنفعة والسطحية ،ولكي نستطيع ان نتخطى هذه المشكلة لا يكون إلا عبر خلق روابط وعلاقات اجتماعية مبنية على تقوية شعور الانتماء للمجال وخلق فرص لمساهمة جميع الافراد في صناعة مجالهم للقضاء لديهم على مشكل الشعور بالإقصاء والتهميش والذي لا يخدمهم لا هم ولا مجتمعهم ولا مجالهم،لأن هذا ما وجدناه عجل في وتيرة انهيار القصبة معنويا وماديا فبتخلي سكانها القدامى عنها وشعور الوافدين اليها بالإقصاء والتهميش عن طريق سياسة السلطات في الحفاظ على التراث المادي والمبني للقصبة دون الاهتمام بتراثها المعنوي الذي صنعه سكانها الذين لم يتم اشراكهم لا من بعيد ولا من قريب في هاته العمليات،بل ونظر إليهم دائما على انهم سبب الحالة الكارثية التي تشهدها القصبة ,وعليه وسط هذا الاقصاء والتهميش لا يمكن أن تبنى أي هويات مجالية أو حضرية، ما سنثبته في تحليلنا لجداول الدراسة الميدانية لاحقا .

خامسا:القصبة

لغة تعني "القلعة"التي بنيت في أعلى الجبل،اصطلاحا هي المدينة التاريخية وهذا حسب تعريف « **PAGAND** » للمدينة التاريخية بحيث تحتوي على مقر سلطة وتعرف من الخارج عن طريق أبوابها وأسوارها (23),وشبهت بالقلعة لأنها محصنة أمنيا ببنائها على ربوة يزيد ارتفاعها عن 100

م مشرفة على البحر،وقد بنيت القصبة بأيدي جزائرية لكن بقرار عثماني ،أين شرع ببنائها سنة 1516م على يد "عروج" بدلا عن قصبة "بلكين بن زيري" التي أنشأت سنة 950 م، لهذا نلاحظ انه كانت قصبتان في مدينة الجزائر: قصبة بلكين بن زيري و قصبة عروج (24) والقصبة التي بنيت آنذاك غير القصبة التي نعرفها اليوم،حيث تهدمت معظم منازلها في زلزال 1716م (25),واتخذت بعد ذلك الشكل الذي نعرفه اليوم الملتصق المتراص فيما بينه ليلائم الانحدارات الطبيعية ،فهي تظهر للعيان على شكل مثلث به بنايات من القمة الى الأسفل (البحر)،تتخلل هاته المنازل طرق ضيقة وملتوية ،مع وجود مباني ذات شرفات عثمانية الشكل من الجهة العليا للقصبة ومبان بشرفات غربية الهندسة بناها الاستعمار الفرنسي أسفل القصبة كواجهة يخفي بها مدينة الجزائر القديمة.

وقد اخترنا قصبة الجزائر بالتحديد باعتبارها النواة الأساسية أو الأم لمدينة الجزائر فقد احتوت على المعالم الأساسية للمدينة: المسجد,قصر الداي والسوق الكبير(26) ،كما انقسم المجال الحضري قبل الاحتلال الفرنسي إلى قسمين يفصلان الحياة الداخلية عن الحياة العامة,فالحياة الداخلية حياة عائلية لها بعدان المسكن والحي,كما كانت المنطقة العليا(الجبل) تسكنها عائلات مغاربية ,وهي أحياء سكنية بتجهيزات قليلة جدا ,حيث تدل تشكيلتها الداخلية على وجود العلاقات الجوارية بشكل كبير بين السكان.

تطرقنا للقصبة في هذا المجال لن يكون للحديث عن تراثها المادي والذي يعتبر كمعلم تاريخي أو متحف مفتوح على المدينة، بقصورها ومساجدها وعيونها التي أنشأت بعناية فائقة لتحقيق التناغم المجالي وطبيعة موقعها الجغرافي ومناخها، بل سيكون الحديث هنا عن ذلك الانعكاس الراقي لثقافة الناس الذين سكنوها من خلال هندسة بيوتهم التي صمم كل ركن من اركانها لآداء وظيفة اجتماعية وثقافية استطاعت فيما بعد ان تصبح ممارسة حضرية ومدينية مميزة لسكانها عن غيرهم من العاصميين، سنتكلم عنها بشقها المعنوي وتراثها اللامادي بعاداتها وتقاليدها الحضرية بممارساتها المدينية المجسدة في التعامل الراقي مع المجال المسكون داخل المدينة، برقي علاقاتها القائمة على قدسية العلاقات الجوارية ورمزية الانتماء للحي الذي يعتبر امتدادا للمنزل، عن كيفية استهلاكها لبيوتها من الداخل ،الذي استطاعت من خلاله تحقيق تناغم اجتماعي وعادات وتقاليد المجتمع المتعارف عليها ، عن الهندسة الاجتماعية لها، فواجهات منازلها مغلقة غير مكشوفة ونوافذها مرتفعة عن الطريق وبشباك صغير للتهوية والضوء ، علو المساكن يكون بطابقين ونادرا ما يكون بثلاثة ،أبوابها غير متقابلة بل متفاوتة قليلا احتراما لخصوصية الجار ،الولوج إليها يكون بمراحل تكريسا لمبادئ الحياء أو الحرمة فنجد السقيفة وهي مكان انتظار الزوار حتى يؤذن لهم بالدخول ،ثم وسط الدار وهو فناء مفتوح على كافة أرجاء المنزل ،والذي يعبر عن مجال لتواصل أفراده ومكان للقيام بعدة أعمال وأنشطة يدوية ،وبمثابة قاعة للاحتفال بكل مناسبة ،ثم ننتقل عبر أدراج الى الطابق الأول الذي به حجرات تدعى بيوت ،أما في الطابق الثاني

فتدعى بالغرف ،وفي الثالث نجد المنازه ،ثم نصل الى السطح والذي يعتبر مجال نسوي للالتقاء والتسلية والقيام ببعض الأنشطة المنزلية و كذا مكان للاحتفال بجل أفراحهم ،وفرصة للتمتع بخليج الجزائر .

وعليه يمكن أن نستنتج أن وسط الدار والسطح كانا بمثابة ورشة تلتقي بها النسوة لتبادل الخبرات والفنون وتلقين الصنائع التقليدية الحضرية لبعضهم البعض، وعليه فالنسوة كن يدمجن الوافدات إلى المنزل وإلى القصبة ككل عبر تلقينهن لطريقة الحياة بحضرية و مدينية، وكذا بتعليمهن طريقة استعمال المنزل وثقافة استهلاكه وفقا لهندسته، وصولا الى طريقة الحديث والتواصل مع من حولهم ، أما خارج المنزل فكان للحي أو الحومة رمزية كبيرة لدى سكانه فكان يقوم الرجال بإدماج الوافدين إليه عن طريق إطلاعهم على نظام الضبط القائم بالحي القائم على أساس قيم ومعايير اجتماعية وحضرية تنتظم حولها علاقات الجوار وكيفية التعامل مع القريب و الغريب ،والتي كانت تكفل الحقوق وتحدد الواجبات بها لكل فرد ،باعتبار أن الجار كان بمثابة الأخ الاجتماعي لجاره يعرف أدق تفاصيل حياته ينوبه بغيابه ويؤازره وقت أزماته. هذا ما جعلنا نتبنى هذين المقومين كمكونين أساسيين لتحقيق الاندماج الحضري والمديني للسكان والذي يعتبر من أهم آليات بناء وتكوين الهوية الحضرية للفرد ،التي عن طريقها يمكن تفادي كل الصدامات والمشاكل التي قد تنتج بين السكان ،فالحي حسب "**بارك**"يحتوي على كل الإرث الثقافي لجماعة ساكنيه ،وهو مكان للتعبير الاجتماعي والثقافي والمكان المميز والمفضل للتنشئة الاجتماعية في المدينة ،ولأن القصبة أعطت الأولوية للحي، لما يقوم به من وظيفة اجتماعية وحضرية بتحقيق الاندماج الحضري والمديني للوافدين اليها وهذا بإذابة مرجعياتهم الريفية القائمة على أساس الروابط الدموية والعائلية ، واختزالها بمرجعية أفقية واحدة قائمة على أساس الانتماء للحي والمدينة،ومن ثم إكسابهم "لأحقية العيش بالمدينة "على حد تعبير " **LEFEBVRE**" كأناس حضريين ومدينيين عن طريق فعاليتهم داخل مجالهم وقدرتهم على خلق ممارساتهم المميزة لهم ولمجالهم .

لكن وللأسف فبعد الإفراغ الاجتماعي والحضري الذي تعرضت له القصبة بعد الاستقلال، بتخلي سكانها الأصليين والقدامى عنها متوجهين بذلك الى الأحياء الأوروبية وإلى ضواحي المدينة بحثا عن الرفاهية ، والذين أجروا منازلهم للنازحين الجدد من الأرياف الذين لا يعرفون شيء عن القصبة وكيفية استهلاك مجالها ،الذي لطالما استلزم وجود ملقنين لثقافة التعامل معه وفقا لهندسته ،خصوصا أن لكل ركن منه وظيفة استطاعت ان تنتج من خلالها ممارسة خاصة به تميز من خلالها المديني الحق من غيره،وعليه وكنتيجة لهذا التغير في التركيبة السكانية،وجد النازحون أنفسهم في مجال غريب لا يمتلكون أدنى فكرة عن طريقة استعمال مجاله ولا عن رمزيته ،فأصبحوا يصارعون فيه مشكل السكن والاكتظاظ "بالدويرة" الواحدة وكذا مشكل الاندماج باعتبارهم سكان من الدرجة الثانية في نظر السكان القدامى ، ومهمشين في نظر السلطات التي تركتهم في منازل آيلة للسقوط,وعليه فقد تعاملوا مع المجال بشكل فوضوي ساهم في تدهوره الفيزيقي ,

ومن ثم الى انهياره المعنوي باندثار تلك الممارسات و الحضرية والمدينية الراقية ،وأفقد القصبة لفاعليتها في صناعة الهوية الحضرية ودمج الوافدين اليها فحسب "**اشبودان لعربي**"...مجتمع تعطلت فيه المؤسسات الاجتماعية المنتجة للهوية يصعب فيه دمج القادمون الجدد وإكسابهم لنمط المعيشة المديني "(27) وعليه في طرحي هذا اعتبرت أن السكان الاصليين والقدامى بالقصبة هم بمثابة المؤسسة الاجتماعية الأولى التي تقوم بدور التنشئة الاجتماعية لسكان القصبة من أجل اكسابهم لهوية حضرية،وهذا ما حاولت إظهاره من خلال دراستي الميدانية وتحليلي لنتائج الجداول التالية: "الجداول من تصميم الباحثة"(28)

جدول رقم 01: يبين مكان الميلاد وكيفية الاحتفال بالمناسبات والأفراح

كيفية الإحتفال بالمناسبات / مكان الميلاد	إحتفال عصامي "صقباجي"	إحتفال عصيري	إحتفال إسلامي	مختلط بين والعصيري العصامي	إحتفال جهوي	الجموع
القصبة	23 %45,09	4 %7,84	2 %3,92	21 %41,17	1 %1,91	51 %100
خارجها (نواحي العصامة)	12 %41,37	7 %24,13	2 %6,89	8 %27,58		29 %100
الريف			2 %5,52	6 %28,57	13 % 61,90	21 %100
الجموع	35 %34,65	11 %10,89	6 %5,94	35 %34,65	14 % 13,86	101 %100

جدول رقم 2 مكان الميلاد ونوع الزيارات المتبادلة بين الجيران

نوع الزيارات المتبادلة / مكان الميلاد	اليجران الدقامى	اليجران الجدد	اليجران ولاجدد الدقامى	يف قفط النمسابات	لايجود للزيارات تبادل	الجموع

القصبة	21 %41,17		6 %11,67	11 %21,56	13 %25,49	51 %100
خارجها (نواحي العصامة)	6 %20,68		3 %10,34	6 %20,68	14 %48,27	29 %100
الريف	4 %19,04	1 %4,76	3 %14,28	1 %4,76	12 %57,14	21 %100
الجموع	31 %30,69	1 %0,99	12 %11,88	18 %17,82	39 %38,61	101 %100

جدول رقم 3 :مكان الميلاد والمساهمة في حل مشاكل الحي

الماسهمة يف حل ماشكل احلي / مكان الميلاد	نعم	لا	أيحانا	الجموع
القصبة	23 %45.09	18 %35.29	10 %19.60	51 %100
خارجها (نوحاي العصامة)	8 %27.58	12 %41.37	9 %31.03	29 %100
الريف	3 %14.28	11 %52.38	7 %33.33	21 %100
الجموع	34 %33.66	41 %40.59	26 %24.74	101 %100

نستنتج من خلال الجداول المذكورة آنفا ،أن هناك علاقة قوية بين مكان الميلاد(القصبة) ونسبة الحفاظ على الهوية الحضرية "القصباجية" ،إذ أنه في ظل هذا الانهيار والتراجع الشبه كلي للعادات والتقاليد والممارسات "المدينية "بحيث أن غالبية السكان والذين هم في الحقيقة أقلية ,مقارنة مع السكان الإجماليين للقصبة الذين لا زالوا يحافظون على العادات التقليدية الخاصة بالقصبة في احتفالاتهم ومناسباتهم وجدناهم من المولودين بالقصبة، هذا كونهم تربوا ونشؤوا على عاداتها وتقاليدها وتشربوا لثقافتها الحضرية ،كما وجدنا أن هاته الفئة القليلة هي التي لاتزال تقيم أفراحها في دويراتها وبالتحديد في وسط الدار والسطح ،هذا لأنها ترى أن جل هاته الممارسات الحضرية والطقوس التقليدية لا يمكن القيام بها خارج مجالها الأصلي أي دويراتها ،مثل" ربط الحنة للعروس، الاحتفال بولود "السابع" ....وغيرها " وإن خرجت

عنه فحتما ستفقد خصوصيتها ونكهتها المدينية ،أما بشأن نوع الزيارات المتبادلة مع الجيران وكذا المساهمة في حل مشاكل الحي ،فقد وجدناها أكثر درجة لدى هاته الفئة ،وهذا شيء طبيعي سبق ذكره إذ ان للجار والحي رمزية كبيرة لدى السكان الأصليين للقصبة والذين لطالما اعتبروا الجار امتدادا عائليا والحي امتدادا سكنيا ،أين يتقاسمون مع بعضهم ظروف الحياة حلوها ومرها ،كما يتقاسمون المجال بكل رقي وحضرية حدوده رمزية أين الكل به يعرف ما له وما عليه. لكن وكنتيجة للكم الهائل من السكان النازحين إليها خلفا للسكان الاصليين ،فقد حرصت هاته الفئة المتبقية منهم أن تكون علاقاتها الجوارية مع مثيلاتها من السكان القدامى بالقصبة لا غير ,وهذا لجهلها بطبائع السكان الجدد وخوفا على فقدانها لمكانتها وسطهم,كما أنها سعت بذلك للحفاظ على خصوصية وتميز هويتها من الذوبان وسط تلك المرجعيات الهوياتية المختلفة.

أما بالنسبة لواقع الحي أو الحومة، فبعد هذا النزوح الذي جلب أعدادا ضخمة مختلفة ومتمايزة من السكان التي لم تستوعبها لا القصبة ولا ثقافتها والتي ساهمت في تدهور الحالة الفيزيقية لها ،فصارت أحيائها مكبا لأردام المنازل التي بدأت تتهاوى الواحدة تلو الأخرى في ظل تجاهل السلطات لها وانتظار هؤلاء الفئة منهم لسكنات أخرى لائقة بديلة عنها ،أين غابت تلك الرمزية مع سكانها القدامى الذين حافظوا على بيوتهم وكذا أحيائهم ،أما الوافدون اليها الجدد فلا تهمهم لا القصبة ولا أحيائها ،بل هي مجرد مركز عبور يحصلون من خلاله على سكن لا أكثر ولا أقل، إذ لم يشهدوا بها إلا واقعها المرير ومأساة مدينة منسية ,اشعرتهم دوما بالإقصاء والتهميش ، عكس القدامى منهم الذين لا يزال حبيبهم في نظرهم يمتلك رمزية وخصوصية تجعلهم يتفاخرون بالانتماء له، هذا كونهم ينظرون اليه من مخيال رمزي يذكرهم بزمنهم الجميل بها وحنينهم إليه لا بواقعها المأساوي.

وعليه نستنتج أن كل رموز القصبة هاته،التي هي في الحقيقة مكونات للهوية الحضرية بها ،بدأت تفقد قيمتها ومكانتها وتأثيرها ،خصوصا في فئتي النازحين اليها سواءا من أنحاء العاصمة أو من الأرياف ،باعتبارهم لم ينشئوا أويشبوا على عاداتها وممارساتها الثقافية والحضرية تلك، ولم يستوعبوها لأنهم لم يجدوها أصلا خصوصا بعد الانهيار المادي والمعنوي الذي تشهده،ولم يعيشوا زمن القصبة الجميل لأنهم أصلا لم يولدوا لاهم ولا آبائهم بها , فذاكرتهم عن المكان هي ذاكرة واقعية خالية من الحنين الى الماضي والاعتزاز بالانتماء اليها، لأنهم لطالما همشوا وأقصوا من طرف سكانها القدامى ونسبت اليهم كافة الآفات التي تشهدها القصبة ،وعليه فعلاقتهم بها ومجالها علاقة نفعية إذ يرون فيها فرصة للحصول على سكن اجتماعي لائق،وهذا مايفند قول " **Gervais LAMBONY**فأن تكون داخل المدينة لا يعني أنك منها" ، فكونهم يعيشون في القصبة لا يعني أنهم منها وأبنائها لأن الحضرية هي نمط حياة وأسلوب عيش داخل المدينة ،والمدنية هي تمثلات و ممارسات تعكس ثقافة هاته المدينة،وبما أن الآلة الحضرية بالقصبة الآن معطلة وسكانها لا زالوا يتخبطون في مشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية ,فلا يمكن أن ننتظر منها أو منهم إنتاج هويات حضرية وممارسات مدينية كما كانت تقوم به سابقا.

خاتمة

إن عرضنا هذا لواقع الهوية الحضرية بقصبة الجزائر ،ليس سوى إلقاء لضوء خافت و إسقاط لبعض ما جاء به كثير من علماء الاجتماع فيما يخص دور المجال في بناء وتكوين هوية الفرد داخل المجال الحضري,وتأكيدا لعدة دراسات أقيمت في هذا المجال كدراسة **Marie MOREMLLE**بالكاميرون و **Peter GOULD**بلوس أنجلس،أين وجدوا أن معيار المدينة يكون ناجعا أحيانا في فهم أشكال التعريف بالهوية ،كما يمكننا من تجنب عديد أزمات الهوية كالانطواء والإقصاء والتهميش،وعلى حد تعبير "**جعفر لسبت**"حياة متعبة هي مدينة متعبة" La mal Vie, la mal Ville وعليه، فلكي نجعل من سكان المدينة سكانا حضريين يجب أن نعلمهم كيف يكونوا فاعلين يحيون المدينة لا يعيشون بها ،يحيون بثقافتها الحضرية من خلال تلقينهم لطريقة استعمالهم واستهلاكهم لمجالها وتعاملهم معها وبإنتاجهم للممارسات حضرية ومدينية مميزة لها،والذي لن يتحقق إلا بتقوية شعور الانتماء لديهم من خلال إشراكهم في صناعة مجالهم الحضري ،لأن الانتماء الى منزل أو حي هو انتماء إلى جماعة اجتماعية ، على حد تعبير "**شومبارد دو لو**" و مثل هذا الشعور هو الذي سيجنبنا هكذا أزمات ،كما أنه لتتمكن القصبة من آداء وظيفتها على أكمل وجه ،توجب علينا والفاعلين الاجتماعيين والسياسيين ككل، أن تتضافر جهودنا لحل المشاكل التي تتخبط فيها القصبة وسكانها، لكي تعود لسابق عهدها وتنهض بدورها كمدينة وكمركز تاريخي للجزائر.

الهوامش

1. حمدان بن عثمان خوجة: **المرآة** ،تقديم وتعريب د.محمد العربي الزبيري،وزارة الثقافة،2007
2. ICHEBOUDENE Larbi : l'Intégration Citadine, à propos de la difficulté d'être Algérois, in la ville dans tous ses états, revue de réflexion, casbah ,1998
3. طايبي رتيبة:**الصراع الثقافي وتأثيره على هوية الشباب الجامعي في المجتمع الجزائري** اطروحة لنيل شهادة الدكتوراه،2007 –2008.
4. طايبي رتيبة: نفس المرجع السابق
5. طايبي رتيبة :نفس المرجع السابق
6. عبد الله الشامي رشاد: **إشكالية الهوية**، سلسلة عالم المعرفة،الكويت،1997
7. الجابري محمد عابد في إبراهيم حركات: **الصراع بين هويتين ثقافيتين**،القاهرة 1977.
8. حجازي أحمد مجدي:**العولمة ، تهميش الثقافة الوطنية**،عالم الفكر
9. CASTELLS Manuel : Le pouvoir de l'identité, édition Fayard, 1999, Paris 16
10. CASTELLS Manuel : idem

11. CUCHE Denys : La notion de la culture dans les sciences sociales, éd casbah, Alger 1998

12. MAUGNIER J Paul: L'identité virtuelle, les jeux de l'offre et de la demande dans le champ social.

13. NOCHIS Kaj : Signification Affective du quartier, librairie des méridiens, paris, 63.

14. LUSSAULT (M) et SIGNOLES (P) : la citadinité en question, Tours 1996.

15. GRAFMEYER (Y), ISSAC (J) (Présentation) : L'école de Chicago, Naissance de l'écologie urbaine, Aubier, Paris 1998.

16. HALBWACHS (M) : Chicago, Expérience Ethnique, In GRAFMEYER (Y) l'école de Chicago, Aubier, Paris 1998.

17. BANTES Nicolas : Cheminements autour de l'identité urbaine, in la France en ville, éd Atlande, 2010.

18. BANTES Nicolas :idem.

19. CASTELLS Manuel : Le pouvoir de l'identité, édition Fayard, 1999, Paris

20. CASTELLS Manuel : La question urbaine, François Maspero, 1 place Pain levé, V paris ,1975 .

21. CASTELLS Manuel : Le pouvoir de l'identité, édition Fayard, 1999, Paris

22. CAMILLERI.C : La culture et l'identité, concept et enjeux pratiques de l'interculturels, éd l'harmattan 1989.

23. PAGAN : la Médina de Constantine, de la Ville Traditionnelle au Centre de l'Agglomération THD «3éme cle »

24. حليمي عبد القادر : **أصول نشأة مدينة الجزائر**،مجلة الأصالة ،الجزائر,العدد 8 سنة 1972

25. خلاصي علي: **قصبة مدينة الجزائر**،دار الحضارة ,الجزء الأول، ط1، 2007

26. ICHEBOUDENE Larbi : Alger histoire et capitale de destin national, édition casbah, Alger, 1997.

27. ICHEBOUDENE Larbi : l'Intégration Citadine, à propos de la difficulté d'être Algérois, in la ville dans tous ses états, revue de réflexion, casbah ,1998

28. وداش ضاوية: **القصبة بين الهوية الحضرية والواقع المعيش**,أطروحة ماجستير في علم الاجتماع الحضري،2010 .

مقاربة نفس–اجتماعية لأزمة الهُوية لدي المراهق من أسرة مفككة

د. سخسوخ حسان/ جامعة سطيف